المستخلص

محمد عبد الرسول سلمان الزيدي. مباحث الدلالة القرآنية دراسة في كتب أعجاز القران وعلومه (أطروحة دكتوراه) .- بغداد : الجامعة المستنصرية : كلية الآداب : قسم اللغة العربية ،٢٠٠٨

عنيت دراسات كثيرة بالدلالة القرآنية من الزاوية اللسانية التي اتخذها بحثنا منطلقا ، ولكنَّ تلك الدراسات لم تكن بحسب ما وقفنا عليه معنيّة بتحديد مفهوم(الدلالة القرآنية) على نحو دقيق ، وبمنطقة بحثها وبمسالكه. وقد غابت مسألة تأصيل ذلك عن هذه الدراسات على الرغم من أنّها تداولت استعمال مصطلح (الدّلالة القرآنية) هكذا من دون تحديد . ومعلوم أنَّ المصطلحات هي : مفاتيح العلوم ، وثمارها القصوى ، ومجمع حقائقها المعرفية ، وعنوان ما به يتميز كل واحد منها عما سواه . والسجل الاصطلاحي هو الكشف المفهومي الذي يقيم للعلم سوره الجامع وحصنه المانع ، فهو له كالسياج العقلي الذي يرسي حرماته رادعا إياه أن يلابس غيره وحاظرًا غيره أن يلتبس به [١] . وهذه الأهمية والمكانة التي يتسنمها المصطلح في كل علم لها أثرها البالغ في نوع المعرفة التي يفرزها هذا العلم . وقد كان لغياب تحديد مفهوم المصطلح في (علم الدلالة القرآنية) أثره كذلك في اختلاط ما ينتمي إلى هذا العلم حقيقة بما هو ليس منه . ولهذا السبب انصبت عناية هذه الدراسة على محاولة قراءة مـــفهوم (الدلالة القرآنية) في تراث علوم القرآن ، واشتقاق مفهومها ، وما ينتمي اليها وتأصيل ذلك كله : مفهومًا وأصولًا وتطبيقاتٍ. هذا ما عكفت الدراسة على تبيينه . ولنا أن نلخّص أهم ما وقفنا عليه في رحلة الاستكشاف هذه بالآتي :-

أولا- وقفت الدراسة على قضية (إعجاز البيان القرآنيّ) على أنها الإطار الذي يشتمل على نواة مفهوم (الدلالة القرآنية). فقد جاءت معجزة القرآن مشاكلة لما برع فيه من نزل عليهم ، وهم العرب أهل عصر الرسالة ، فقد كانوا أمة بيان ، وكان الكلام سيد عملهم والشعر ديوانهم وأبلغ ما وصل اليه بيانهم . فلما أنزل الله - تعالى - القرآن على رسوله الكريم (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) تحدّاهم بما كانوا لا يشكّون على أنهم أقدر عليه منه ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ، ووقفوا دونه حيارى ، إذ ألفوه كلامًا من جنس كلامهم ألفاظًا ومناهجَ قول ، ولكنهم وجدوه مفارقا لكل ماعهدوه من كلام. وكان أن أعجزهم : بنظمه الخاصّ . وهذا المعنى للإعجاز هو ما يتظاهر عليه العلماء الا قليل منهم . وقد كان الشعر الجاهلي من ضمن سائر ادب العرب يومئذ ،هو ما وقع عليه التحدي على وجه خاصّ لكونه أكثر مظاهر إبداع البيان قوة في ذلك العصر. واللغة في الشعر درجة عالية للقيم التعبيرية الكامنة في اللغة الحقيقية لكلّ أمة . ولذلك عُدّ الشعر رمزًا للخلق الأسلوبي اللغويّ الأوفى عند البشر . ولذلك كان الحثّ على أن يتخذ الشعر اداة فقه مكامن البيان في القرآن المعجز . ولم يكن اختيار الشعر عبثا ، فللشعر ما يتميز به فيما تمثله مقولة : إنّ الشعر استعمال خاص للغة . وتفسيرها على نحو دقيق: إن الشعر نظم لغويّ خاصّ. وهو في نماذجه العالية مصوغ ليكون قصدًا إلى معنى معيّن فكلّ تركيب شعري هو قصد إلى معنىً خاص . إن هذا (المعنى الخاص) هو ما أوجب خصوص هذا التركيب ، وحينئذ فان هذا (المعنى) لا يؤدّى إلا بهذا (التركيب) . وإذا كان هذا التصور الذي تضمنه التراث الفكري العربي (وأكّده الدرس النقدي الحديث) هو السرّ في اتخاذ الشعر أداة في فقه مكامن البيان القرآني ؛ فإنه السر

---

(١) ينظر : قاموس اللسانيات ، د. عبد السلام المسدّي :١١.

عينه الذي يدعو إلى أن يوظّف هذا التصور لتحديد مفهوم دقيق للدلالة القرآنية من منطلق أنّ القرآن هو استعمال لغويّ خاصّ . فإذا كان الخطاب الذي يتداوله الناس في محاوراتهم يدور على مبدا الاتصال الإخباري المحض ، وكان الخطاب الأدبي (والشعر منه على وجه التحديد) دائرًا على مبدأ الإبداع والاستعمال اللغويّ الخاصّ لأغراض التأثير الجمالي؛ فإن الخطاب القرآني لـ " يجمع بينهما تداولًا وإبداعًا ويتجاوزهما معا في الوقت نفسه إلى هوية به خاصة "[٢] فاللغة فيه تكتنز مافي الخطابين السابقين من وظائف ، وتتحصن بنفسها عنهما في الان ذاته ، لتكون إعجازًا يصير الأداء فيه صورة على مثال منشئه من غير تشبيه "[٣]وهو معنى ما عبّر عنه علماؤنا القدامى بـ (اتحاد الدليل والمدلول فيه) . فهو رسالة تشريعية اعتقادية في أداء لغويّ معجز . وانه بذلك أولى الكلام بأن يوصف بأنه يستعمل اللغة استعمالا خاصا ، اذا يبلغ بإعجازه حدّ المطلق في خصوصية الاستعمال اللغوي . وإذا يتجلى إعجازه في (نظمه الخاصّ) فهذا معنى وجوب ان تكون دلالته(دلالة خاصة) وأن يُنْظَرَ إليها في إطار(النص القرآنيّ الجامع) .

هذه الصورة اشتمل عليها تراث علمائنا موضع البحث ؛ إذ تقرّر عندهم أن(القرآن)(نظم معجز) و (تأليف خاصّ). وعكفوا يشرحون دلالة ذلك في امتداد زمني وتفاعل اسهمت فيه مختلف مشارب الفكر ؛ بدءًا من حصر سبب الإعجاز في (نظمه) الذي وصف بأنّه : بديع لا يقدر على مثله العباد ، وعجيب ، وغريب ، ومعجز . وقالوا فيه - في مركبات إضافية- : إنّه غريب التأليف والرصف ، وبديع التركيب ، ومعجز التأليف .. إلى ما هنالك من الأوصاف التي عبرت عن أنّه نظم وتأليف خاص معجز . وبموازاة ذلك انصرف الجهد إلى تحديد دلالة دقيقة لمفهوم(النظم الخاصّ)الذي ظهر تعبيرًا يرقى إلى درجة المصطلح عند عبد القاهر الجرجاني. وهكذا ضُبط للنظم القرآنيّ الخاصّ مفهوم يقوم على انتظام الألفاظ في التركيب القرآني المعجز انتظامًا خاصًّا يقوم على الكمال :-

- في اختيار اللفظ (بنية ودلالة) من حيث كونه الأقدر على التفاعل مع دلالات محيطه اللفظي لأداء المعنى المراد ،
- واختيار الوجه التركيبي (وهو أحد وجوه التعليق الممكنة في العربية) الأقدر على أداء صورة المعنى المقصود اليه ،
- واختيار الوظيفة النحوية والموقع التركيبيّ لكلّ لفظ منتقى بما يضمن كمال إخراج(صورة المعنى)،
- مع كمال الإحاطة بمقتضيات الأحوال من مقام المتكلم وهو الله - سبحانه وتعالى - ومنازل المخاطبين وأحوالهم ، وأحوال الخطاب ، وقدر الاشياء المتحدث عنها ،وعرف المتخاطبين في التعبير عنها.

والقرآن بهذا المعنى نظم خاص معجز يوجبه نسق المعنى الذي قصد الله سبحانه وتعالى إبلاغه. هذا النظم هو : (مخصص صورة المعنى القرآني) . إن خصوص نظمه هذا أمر ينتظم القرآن كله على حدٍّ واحد لا تباين فيه ولا تفاوت ؛ فهو يجري في سبكه على نظام ، وفي رصفه على منهاج ، وفي وضعه على حد ، وهو على متصرفاته واحد . ولـ(تعادل نظمه المعجز) فهو نظام لغويّ خاص . يوظف سَنن العرب في تأليف العبارة ، ويبدع نظامه الخاص في التعبير . وبه يعتلي مرتبة المعجز ، وبه يتمحّض له وصف المحكم الذي لا تتكلم العرب بأجود منه في الإعراب

---

(١) اللسانيات والدلالة (الكلمة): ٩٥.

(٣) المصدر نفسه : ١٣ .

، فهو أفصح اللغات وأقواها ، وأعربها ، وسيّدها ، وما لا تعلّق بـه ضـرورة ، ولا يلحقـه تجوّز .
وهو وحدة لغوية متماسكة يشهد بعضها على بعض حتى عدّت كالكلمة الواحدة.
ولذلك كله دلالتان مهمتان :-
- إن نظمه الخاص قصد إلى دلالة خاصة معينـة هي تحديدًا (الدلالـة القرآنيـة) . وهـي كذلك ؛ لأنها مقتضى النظم القرآني الخاص .
- إن النصّ القرآني هو سياق المعنى الأكبر . فمنه تبدأ الدلالة القرآنية ، وفي سياقاته تقرأ ، وفي إطاره تستجلى ، واليه تنتهي . ومادام القرآن نظامًا لغويًا خاصًا فدلالته من ممكنـات هذا النظام ، ووليدة سياق النص الجامع (القرآن) في وحدته ، وخصوص نظمه .
إن تحصيل هذه الحقيقة أمر غاية في الأهمية في تحديد مسار تحليل البناء اللغوي للقرآن من حيث كونها توجب أن تستجلى دلالته في إطار مفهوم : أنـه نظام خاص معجز، وأنـه نظام لغوي خاص . ولما كان هذا دليلا على أنّ المتكلم به هو الله تعالى فذلك كله يعنى خصوص دلالته وأنها قصد إلى معنى محدّد .
وهكذا تكمن خطورة هذا المفهوم في تحديد ما ينتمي إلى الدلالـة القرآنيـة ممـا لا ينتمـي إليهـا. ولذلك فمن شأن التزامها على مستوى المفهوم ، والمنهج ، والتطبيق أن يضمن سلامة النهج في بحث دلالة القرآن . وهذا وعي لـم يغب عن علمائنـا ، فعبروا عنـه بـأن للقرآن عرفًا خاصًا ، وعادًة في خطابه ، وسنّة ، وجادّة ، ووظف بعضهم منهج الاستقراء في استنباط الدلالـة القرآنيـة من قراءة شاملة للنص الجامع (القرآن) ، وعضد ذلك بالتطبيق .

ثانيـا- الأصل في فهم الرسـالات السماوية جميعا أن تكون بلسـان قوم الرسـول المرسَل إليهم. وتصـديق ذلك قولـه تعـالى:﴿ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﴾ إبـراهيم:٤/١٤،ليـتم التواصـل اللغوي. ومن خصوصيات القرآن انـه يكشف عن منـهج استنطاق بنائـه اللغوي ويعرف المتلقي المتدبر فيه بطريق فقه دلالاته من خلال النص- بطرائق مختلفة معبرة عن سياسة تفصيل الخطاب فيه وادارة المعنـى الواحد علـى وجوهـه - علـى أنـه:(قرآن- كتاب)عربي،ولسان عربـي ، وبيـان وبلاغ . ويضع المتلقي- بذلك - أمام عنوان المنهج العام الذي يحكم عملية فهم النص .
_ فهو(قران - كتاب) عربي،جعله الله ،وأنزلـه ، وأوحاه ، وفصّله عربيًا. ودلالة ذلك أنـه:-
كلام وحكم مفصح على مذاهب العرب في كلامهـا . فهـو للعرب مبين وهم بمعانيـه عـالمون ، ولديهم استعداد لمطابقة دلالاته وإدراكها من منطلق انـه خاطبهـا ونـزل بلسـانها بمنطقهـا القريب المفهوم . والاشارة في ذلك قائمة إلى أن معانيه يجب أن تطلب من لغة العرب وكلامها .
وكونـه ﴿ﮦ ﮧ ﴾ مفصّلاً ، فإنـه غاية في الكشف والبيـان . فهـو البيـان الكـافي فـي كل غـرض مقصود.
وكونـه ﴿ ﮃ ﮄ ﴾ ؛ فإنه في ذلك ما يكشف عن قدرته الذاتيـة علـى الإفصـاح والإبانـة عن معانيـه . وان الاحتكام إلى اللسان العربي هو طريق العلم بدلالته .
ولكونـه ﴿ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﴾ ؛ فان في ذلك دلالة انه لا يخرج عن تشابهه وتماثلـه فهـو علـى حد واحد نظمًا ودلالـة ، مستقيمٌ من حيث وجهة اللفظ فيه ، عدلٌ في قصد المعنـى ، قـادرٌ علـى بلـوغ الأفهام .
وهو (لسان عربي)
واللسـان فـي القرآن يـرد فـي دائـرة المفهوم بدلالـة واسـعة شـاملة للمقدرة اللسـانية ، والقواعد المركوزة طبعًا في عقل أهل اللغة (قوانين النظم) ، ومـا يتحقق عنهـا فـي الواقـع الاستعمالي صادرا عن أمة (وهو لسانها) ، وصادرًا عن فرد (وهو كلامه) .

وحدد القرآن تحديدًا دقيقًا أحد أنماط ذلك التنوع عند جنس العرب (اللسان العربي) تعبيرًا عن النظام أو المنطق اللساني العربي ؛ وهو مقدرتهم أو سليقتهم ومحتواها :- جماع القوانين التي يصدر عنها العرب، ويرتسمونها في خطابهم في مستوياتها كافة . واذ يتحقق قرآنيًا وصف ﴿ى ى﴾ وصفًا دائمًا ثابتًا للقرآن ؛ فهذا يعني أن القرآن بذلك هو الصورة الجامعة للسان العربي في منتهي حالات كماله البياني .

والإشارة بليغة إلى أنّ مجئ الرسالة بمقتضى النظام اللغوي للعرب وإحاطته بقوانين لسانها ومعروف خطابها على أفصح ماتكون - وهو ما عبّر عنه العلماء بالقول : والقرآن محيط بجميع اللغات الفصيحة - هو طريق حصول الاستقبال من لدن العرب بتحويل المبنى اللغوي للقرآن إلى معنى معقول ؛ ذلك أن فهم المعنى الكامن في الرسالة اللغوية لابد أنْ يخضع لنظام لغوي متفق عليه ، وهو ههنا العربية المبينة (قوانين النظام اللغوي) هذه التي يوظف النص سننها اللغوية في التعبير . وهي القوانين نفسها التي يعتمد عليها في تفسيره وفقه دلالاته .

وههنا .. مجال دلالي قرآنيّ يتقرر فيه : إن تيسير القرآن بلسان أفصح العرب الرسول الأكرم (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) هو صورة من صور منهج التمكين التام من فقه بيان القرآن وتوفيق للعلم بدلالته اللسانية . ويعبّر إعجاز نظمه - وهو صفة النمط الاقصد الذي تعين له - عن منهج تيسيره وتمكينه من عقل متلقيه كونه قصدًا إلى معنى محدد يبلغه بيسر ودقة ، ويحيط به ، ويظهره أتمّ الإظهار .

والمبين وصفًا للقرآن ولسانه العربي ، والبيان تعريفا قرآنيا للقرآن هو توصيف للقدرة الكامنة في عربية القرآن متمثلة بنظمه المعجز على التعبير عن معاني الرسالة الإلهية بدقّة متناهية ، وعلى الإفصاح والإبانة ، وكشف المعنى المقصود إظهاره . وهو بذلك ضرب من (الالزام البياني) : وهذا من معاني كونه (بلاغًا مبينًا) ، فاذ يبلغ الكمال الأوفى في إحاطته بمعاني الرسالة في بناءٍ لغويٍّ معجز النظم ، وفي استيفائه لمراميها ، يبلغ الكمال الأوفى في اقتضاء دلالته وبلوغها عقل المتلقي . وتصديق ذلك أن وصفه –الباري- سبحانه بالنطق مبالغة في وصفه بإظهار البيان ، وإعلان البرهان . ومن فهم من شيء معنى فذلك الشيء بالإضافة إليه ناطق وان كان صامتًا . فلما دلّ الكتاب على معناه دلالة نطق الناطق عليه استعير له النطق .

وهذا ما يهيئ لمرحلة (عقل البيان القرآني) التي توصل إليها آيتا : الزخرف :﴿ ڈ ڈ ڈ ڈ ژ ﴾ ، ويوسف : ﴿ ہ ہ ہ ہ ھ ے ﴾ . وبهما يتحدد أنّ القرآن : رسالة إلهية لغوية بُني نظام خطابها (بلسان عربي مبين) وأن عربيته هي طريق أن يعقل خطابه على قوانين لسان العرب ، وأنَّ التفكير العقلي (العلمي) المنظم في نظمه الخاص في إطار وحدة النصّ بعد التبحّر في قوانين إنتاج الخطاب في لسان العرب والدلالات المترتبة على كل وجه تعبيريّ مختار، مع إحضار جملة العلوم المساعدة في فهم النص هو الوسيلة إلى استجلاء دلالته .

ثالثًا- إن العلماء صدروًا - إجمالا - في بحث الدلالة القرآنية في حدود البناء اللغوي للقرآن وتمسكوا – ما أمكن - بمنطقه اللغوي سبيلا للاشتغال والكشف العلميين . فكانت غاية أولي العلم الاستدلال ببنائه اللغوي بحثاً عن الدلالات التي يتضمنها ويتحملها وفقاً لقواعد وأصول .

وههنا فرّق البحث بين أمرين :

- مستوى العلم الإلهي بالدلالة القرآنية .. ويشمل : ما استأثر الله تعالى بعلمه وهو العلم بحقيقة الدلالة القرآنية على ما هي عليه ، كنحو العلم بموعد قيام الساعة (مُرْساها) وغيرها . وما علّمه الله تعالى رسوله الكريم فيما عُرف بتفسير المجملات القرآنية كمقادير أنصبة الزكاة مثلا .

- مستوى العلم بمقتضيات لغة النص وهو العلم البشري بعد التمكين الإلهي . وهذا مستوى يمكن بحثه في القرآن كله . فالعلم بالدلالة القرآنية - ههنا - علم يمكن أن يتناول القرآن كله ، وليس

معنى ذلك انه يمكن الوصول إلى دلالات غيبية نص القرآن على أنها كذلك وإنّما غاية هذا العلم تحليل البناء اللغوي للقرآن في ضوء كونه نظماً خاصّاً ونظاماً لغوياً خاصّاً منتميا إلى اللسان العربي . ولا يعني ذلك الوقوف على حقائق ماتشير اليه الالفاظ والتركيبات القرآنية على ما هي عليه في علم الله – تعالى- فتأويل لفظ (الساعة) في القرآن في علم الدلالة القرآنية لا يعني تحديدا لموعد قيامها ؛ كيف وقد استاثر الله بذلك ؟ فليس التفسير أو التأويل - إذن - تفسيرا أو تأويلاً للحقيقة التي يؤول اليها الكلام ؛ لأن ذلك مما يختص الله تعالى بعلمه كعلمه بحقيقة ذاته وصفاته وحقيقة المعاد والقيامة . وانما المراد العلم بحقيقة دلالته في كلام العرب في ضوء سياق نظام النصّ الجامع (القرآن) . والتصور الجامع أنّ عربية القرآن كلها قابلة للبحث الدلالي العلمي .

رابعا - يعدّ فهم العرب للقرآن زمن النزول أول صور استجلاء الدلالة القرآنية . وتكمن أهمية هذه المرحلة في تأسيسها لأصل مهم في بحث الدلالة القرآنية يقوم على تطبيق مقتضياتها،وهو: قدرة العرب على تحويل المبنى اللغوي للقرآن إلى معنى محدّد مفهوم لديهم بالسليقة والطبع .

ولأن هذا الفهم يعد مرحلة أول تماس مباشر مع هذا النص الجليل فقد أفرز جملة من القضايا تمسّ جوهر عملية الفهم . ولذلك ناقشها البحث في ثلاثة محاور مركزية :

- بحث أولها علاقة ألفاظ القرآن بألفاظ العرب . وخلص إلى أنها في مجملها لم تخرج - على الرغم من خصوص استعمال القرآن لها - عن معجم ألفاظ العرب . وهي لذلك ممّا عرفته العرب واستعملته أو عرفت أصل مادته التي اشتق منها . وكلها مما وظّف في التعبير القرآنيّ ، وكشفت سياقاته عن دلالاتها ، ومنها ما شفع ببيان الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) .

- وعني ثانيها بمسألة الخلاف في عربية بعض الالفاظ القرآنية . وكشف استحصال المنظور القرآني لعربية القرآن ونصه على انه لا يخرج عن إبانته عن عربية هذه الألفاظ المختلف فيها كونها جزءًا من منطق بيان العرب زمن النزول .

- وقد كان من المهم دراسة مدى فهم العرب للقرآن وقد أثيرت مسألة غياب معاني بعض الفاظ القرآن عن بعض العرب من الصحابة (رضي الله عنهم) . وهكذا انصبّت عناية هذا المحور على بحث الامر من منظور أنّ في ذلك ما قد يعني خروج القرآن عن عرفه في مخاطبة العرب بلسانها على ماتعرف من معانيها . وكان منطلق البحث في ردّ هذه الشبهة أن قرأ ما ورد مما قد يُفهم ذلك في سياق فهم المجموع العربي لمجموع القرآن أولا ، وتبيّن – ثانيا- من خلال التحقيق في الاستعمال القرآني لهذه الألفاظ والأساليب أن البيان القرآني لم يترك دلالاتها غائبة عن فهم الناس أو عن أن يشكل الناس لها معنىً مفهومًا . وهي بذلك تُردّ إلى سياق علم العرب بمعانيها لكونها ممّا عهد له اصل في لغتهم وظّفها القرآن وصاغها صياغات لا تخرج عن أبنية العرب وكشفت سياقات النظم القرآني الخاصّ عن دلالاتها .

خامسا- وفي إطار حضور مصطلح (العلم) في بحث الدلالة القرآنية كانت محاولة توظيف أربعة أصول بمشمولاتها ضرورة منهجيّة ومنطلقًا لابُدّ منه في تحرير هذه الدلالة على نحو أتمّ.

وقد حاولنا قراءة هذه الأصول في دائرة تجمع بين التأصيل لها ، وبيان أثرها على أنّها أسس منهجية ، وأدوات تحليل دلالي، مع تأييد ذلك بالتطبيقات التي تبيّن ما يفرزه التزامها من دلالات عند مباشرة التحليل ؛ وقد كان لهذه المحاولة الجامعة أن تنجب بحثًا أردنا من خلاله تصوير جملة من القضايا يمكن إيجازها مع أهم ما ترتب عليها من نتائج في الآتي:-

- العلم بأن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى. وهو الأصل الأول الذي يبني حقيقة (أنّ النظم القرآني نظم خاصّ معجز).إنّ خصوص نظمه المعجز دليل قاطع على أنه كلام الله- تعالى-، وإنّ الاستناد إلى هذه الحقيقة في علم الدلالة القرآنية يوجب فهمًا يكفل أن لا يخرج التحليل الدلالي عن مقتضى جلال المتكلم. وهو الله - تعالى- من تنزيه له عن صفات المخلوقين وأفعالهم. ولذلك يكون العلم بما يجوز على الله تعالى من معانٍ وما لا يجوز ضرورة هادية إلى معرفة دلالات خطابه من

منطق: أنه إذا عُرف المُتكلم فُهِمَ من معنى خطابه ما لا يفهم إذا لم يُعرف. وقد خلص البحث من استطلاع أثر هذا الأصل في ثلاثة محاور إلى أنّ توظيفه قد بدأ منذ عصر متقدم بما ورد عن ابن عباس، وبيّن بحث بعض الظواهر التعبيرية القرآنية التي منها ما ورد في بعض الآيات من إسناد أفعال لله - تعالى - على طريق المقابلة مع إسناد الفعل نفسه إلى غيره (من المخلوقين) أو إسناد فعل يدلّ على صدوره من طرفين أنّ تحصيل دلالتها ممكن في ضوء مبدأ تنزيه الله - سبحانه وتعالى - ، وفي إطار سَنَن العرب في كلامها دونما إغراق في التأويل . ولم يغفل البحث تبيان أثر هذا الأصل في الدلالة الزمنية لبعض الأفعال في القرآن الكريم .

- وقد كشفت محاولة قراءة بعض ما أُثر عن الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) من أحاديث شريفة تخصّ تفسير القرآن أو يمكن أن يُستفاد منها في هذا المجال عن أثرها في فقه الدلالة القرآنية ، وفي تأصيل خطاب علمي في بحث (علم القرآن)؛ إذ أرست خطوطًا في هذا البحث غدت منارات يُهتدى بها في بحث هذه الدلالة ؛ ومنها : تفسير القرآن بالقرآن، وبحث الفروق الدلالية بين الألفاظ القرآنية، وما أشكل من دلالة هذه الألفاظ مما يقع في دائرة معنى المعنى ، وبيان الطابع الخاص للاستعمال القرآني لبعض الألفاظ وهو (علم كليات القرآن)، وبيان له أثره في دلالة التركيبات القرآنية.

- ولم تخرج جهود معاصري التنزيل من آل البيت (عليهم السلام) والصحابة (رضي الله عنهم) عن الخط الذي أسّس له الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ؛ فقد كان لمواكبتهم الرسول(صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ، ومشاهدتهم التنزيل، واعتمادهم على علمهم بعربية القرآن التي هي لسانهم؛أثرٌ في الاعتداد بأقوالهم في تفسير القرآن. وقد كشفت محاولة قراءة جهود هذه المرحلة ممثلة بما نُقل – محققًا – عن ابن عباس (رضي الله عنهما) في مجالين : عني أولهما بالقوانين الكلية التي تحكم عملية فهم النصّ. ومن ذلك توظيف العلم بالمتكلم، والاحتكام إلى كلام العرب (والشعر منه خاصّة)، والركون إلى السياق القرآنيّ ، واختص الآخر بمطالعة بعض النصوص التي تفسّر دلالة الألفاظ ، والتركيبات ، والأساليب .

وكان من أهم نتائج هذين :-

- تأكيد أنّ منهج التفسير بالترادف يُراد منه تقريب دلالة الألفاظ القرآنيّة لا تحقيقها؛ وهو مفهوم يفضي إلى تأكيد نفي وقوع الترادف في القرآن . وهو مبدأ يقطع به (أنّ القرآن نظم لغويّ خاصّ).
- الوقوف على لون من التفسير يحاول أن يأتي على الصورة الدلالية المحورية للفظة القرآنية في عرف كلام العرب ليدلف منها إلى تحرير دلالتها القرآنية في دائرة النظام اللغوي القرآني الخاص .

- وقد نزل القرآن عربيًا على عرف العرب في خطابها ومجاري أحوالها؛ ومن هنا كان ضروريًّا أنْ يوظّف العلم بالعربية بأعرافها اللغوية الاستعمالية في منثور كلام العرب ومنظومه ، وما يولد من قوانين اللسان العربي التي تستمد بالاستقراء ، وبالسياق الثقافي للمجتمع العربي في عصر النزول في عملية تحليل دلالته . وفي هذا المجال وقف البحث في أُمات مظانّ الدراسة على عدد كبير من المقولات التي تُعدّ تأسيسات تتعاضد مع فهم السياق الثقافي السائد في عصر النزول في بناء منهج علمي في بحث الدلالة القرآنية؛ إذ وقّفت الباحث على القيمة الدلالية للألفاظ والتعبيرات القرآنية في عصر النزول؛ مما أسعف في تحرير هذه الدلالة على نحو دقيق. ومن المهم بيان أنّ قراءتنا لأثر الشعر في البحث الدلالي القرآني كان منطلقه أنْ يكون الوقوف على مناهج البيان الشعري مدخلاً للوقوف على مناهج البيان القرآني ؛بالمعنى الذي يكون فيه الشعر أداة تفسير وهو ما وقفنا على شواهده في تراث البحث .

- وكان بحث السياق القرآنيّ بمشمولاته: السياق القرآنيّ المقاليّ (القريب، والعام الجامع)، والمقاميّ (الحالي)، والأدائي الصوتيّ (في مبحثيه الوقف والابتداء والتنغيم)؛ من معتمدات هذه الأصول. وفي نطاق قراءة التطبيقات التي تناولناها في مواضع الاستشهاد والتدليل على أثر لحاظ هذه السياقات في بحث الدلالة القرآنية؛ وقفنا على نتائج اجتمعت على بيان: أنّ هذه السياقات مولّدات دلالية لا غنى عنها في ضمان تحرير هذه الدّلالة، وقد كانت مدخلاً يُفضي إلى نظرية العلم الجامع في استجلاء الدلالة القرآنية وهي : (نظرية النظم).

سادسا – وتبين أنّ (النظم) نظرية صالحة للتحليل الدلالي. وكان المستند في ذلك ما قدّمه عبد القاهر الجرجاني . فقد كان الرجل أمينا على تراث متقدميه من حيث استُجمِعَتْ آراؤهم عنده فقرأها في فكره ، وأحسن القراءة وأولدها (النظم) نظريةً ، وأبدع في التعبير عنها وتوظيفها . وعلى قدر ما أرادها أن تكون نظرية في(دلائل الإعجاز)والكشف عن علل التباين وأسرار التفاضل بين القرآن وغيره من الكلام، أرادها- فيما أحسب - أن تكون نظرية في تفسير النظم القرآني وصولاً إلى استجلاء دلالته. من واقع أن القرآن نظم خاص معجز ونظام لغوي خاصّ، فاعتماد نظرية النظم أساسًا في فقه دلالاته أمر تسوغه النظرية نفسها من حيث إنّ لها وجهين متكاملين:

- تفسير كيفية حصول النظم
- تفسير الدلالات المترتبة على اختيار نظم معين من حيث كونه قصدًا إلى معنى معين .

واذا كان النظم من جهة المتكلم هو نظم معنوي يترجم بصورة تركيب لفظي يطابق صورة انتظام المعاني في النفس وهذه عملية عقلية صرف . فالنظم اللفظي من جهة المتلقي طريق إلى تحصيل المعنى الكامن وراء هذه الصورة النظمية ، وهذه كتلك عملية عقلية صرف .

على أن اختلاف صورة المعنى المتّحد المستحصل من مجموع كلام باختيار وجه تركيبي معين يضمن للتركيب دلالة معينة يفارق بها دلالة غيره من التركيبات ينبغي أن ينظر فيه عند مباشرة التحليل إلى نوعين رئيسين من طرائق بوح التركيبات بدلالاتها ، وهما :

- ما يدلّ على المعنى بظاهر ألفاظه .
- وما يدلّ على معنى يُعقلُ منه معنى آخر عن طريق الاستدلال .

وكان الوعي بهذا التصور حاضرًا في التراث ، ومعتمدًا عليه عند مباشرة تحليل الدلالة القرآنية منذ زمن متقدم .

وكان للدراسة أن تقف على نظرية الوجوب الدلالي بين اللفظ ودلالته بعد استقرار المواضعة ، والهيئة التركيبية ودلالتها . وقد دفع ذلك إلى اعتماد مبدأ (التلازم البياني) بين النظم القرآني الخاصّ المعجز ودلالاته ، فيكون اللفظ القرآني في موضعه قصدًا إلى معنى معيّن ، والتركيب القرآنيّ في موضعه قصدًا إلى معنى معين . وقد تبين انه مبدأ قارّ في التراث الذي أقرّ في مستوى التنظير مبدأ الاستلزام العقليّ بين اللفظ والتركيب ، ودلالتهما ، ووظف عمليا في تحليل الدلالة القرآنية في مجالات الالفاظ والتركيبات والسور القرآنية .

وأبان مبحث (الحذف) عما يمكن أن يعد محصلة الدراسة فقد كان البحث فيه تعبيرًا عن هدف مركب ؛ مطلبه:-

- الكشف عن بعض الخلل الذي رافق تحليل البناء اللغوي للقرآن بغية استجلاء دلالته نتيجة غياب مفهوم محدد للنظم القرآني الخاصّ ، أو غياب تطبيق مقتضى ذلك عند التحليل.
- تطبيق مبدأ خصوصية النظم القرآني لكونه قصدًا إلى معنى معين . فما يسمى حذفًا في التركيب القرآنيّ أمر مقصود إليه،وقد يؤدي تقدير المحذوف إلى بُعد عن قصد سبيل الدلالة القرآنية.
- اعتماد نظرية النظم منطلقًا تحليليًا في كشف الدلالة القرآنية والوقوف على أسرارها .

وبعد .. فعسى أن تنبّه هذه الدراسة المشتغلين في حقل الدراسات القرآنية على حقيقة كامنة في تراث علوم القرآن وهي أن النظم القرآني المعجز الخاصّ هو قصد إلى معنى معين خاصّ يستخلص في ضوء النظام اللغوي القرآني في وحدته وتفرّده . واذا كان ذلك معلوما فعسى أن تكون الدراسة تنبيهاً على ضرورة تطبيق مقتضى تلك الحقيقة عند تحليل البناء اللغوي للقرآن وأن يكون العلم بها معياراً لضمان سلامة النتائج، وأن تغادر بحوثنا المعنية بالدلالة القرآنية معاملة البناء اللغوي للقرآن كما تعامل غيره ، وأنْ تحفظ له أنّه مستوى تعبيري لغويّ خاصّ بالمعايير كلها : فالمتكلم به هو الله تعالى وكفى بهذه خصوصيّة ، وأنه أقصى درجات الاستعمال اللغويّ للغة العربية خصوصيّة ؛ من حيث إن نظمه المحكم معجز . وإعجاز نظمه دليل مُلزم على أنّه في اختيار ألفاظه وتركيبها هو قصد إلى تحقيق دلالة معينة خاصّة لا تتحقق إلاّ باختيارها ، كما أنّ نظمه اللفظي الخاصّ هو قصد إلى أداء هذه الدلالة .

وهي أخيرًا دراسة هدفها خدمة القرآن الكريم ولغة التنزيل العزيز ، ادعو الله تعالى أن يتقبلها بقبول حسن ، وكفى به وليًا وناصرًا .

وآخِر دعوانا أن الحمد لـ [illegible] والسلام على سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وصحابته